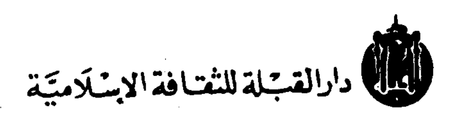


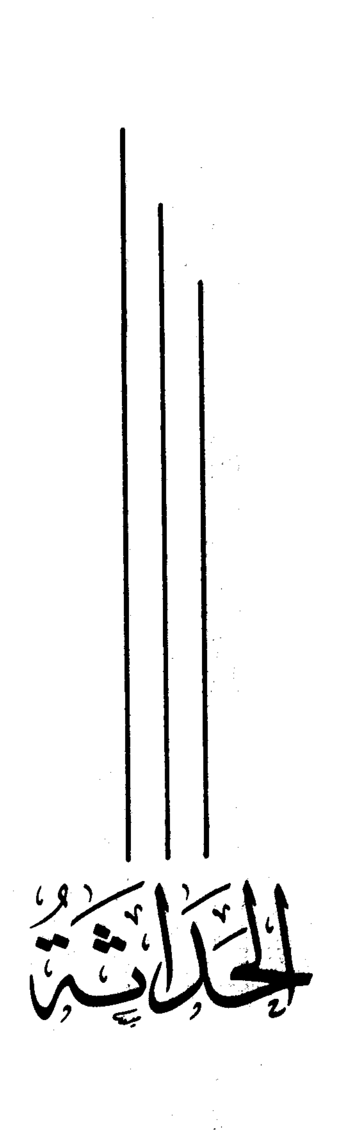
مُناقَشَة هادِئة لِقضيّةٍ ساخِنَةٍ

قدم له الأستاذ الكبير
أحمد الشيباني

تأليف
الدكتور محمد خضر عريف



الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م


الحداثة

الإهــداء

أهدي هذا العمل إلى أمير الشباب صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد بن عبد العزيز الرئيس العام لرعاية الشباب ، والذي يحرص كل الحرص (رعاه الله) على أن تخرج الكلمة الطيبة من أفواه شباب هذا البلد الطاهر.

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

بقلم الأستاذ الكبير أحمد الشيباني

أ ـ مدخــل :

طلب إلي الأخ والصديق الدكتور محمد خضر عريف أن أكتب مقدمة لكتابه الموسوم بعنوان « الحداثة مناقشة هادئة لقضية ساخنة » والحق يقال إنه بعد أن قرأت مخطوطة الكتاب المذكور قراءة نقدية متأنية ، أعجبت ببراعة الأخ الدكتور عريف في تعرية الحداثة والحداثيين من جلابيب الغموض ، وذلك بأسلوب هادىء رزين ، وبعيد عن كل تشنج وانفعال .

ولا عجب في ذلك فالعقل في حواراته ومناقشاته لا يعرف تشنجاً ولا انفعالاً ، وذلك لأنه يتعامل والحقيقة ، ولا ريب أن من يتعامل والحقيقة ، يحرره الحق من كل نزوات الرعونة وانفعالاتها ، ويبحر في محيطات العقل حيث لا توتر ولا تشنج ولا انفعال . ومن يمن الطالع أن يصدر كتاب الأخ الدكتور محمد خضر عريف في مطلع حقبة تاريخية جديدة كل الجدة ، لا بالنسبة للعالمين العربي والإسلامي فحسب ، بل أيضاً لكافة أقطار العالم . وأعني بهذه الحقبة التاريخية الجديدة حقبة العودة ، لا بل التقدم نحو الدين . فبعد سقوط الفلسفة المادية بكل أيديولوجياتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وبخاصة بكافة أشكالها الإلحادية ، وبعد إشهار

إفلاس المذاهب الرأسمالية والشيوعية بكافة أشكالها من ماركسية واشتراكية ، نازية وفاشية ، كان لا بد للعالم بعامة وللمسلمين بخاصة من العودة إلى المنابع الأولى .

فالإنسان لا يستطيع البتة أن يعيش في فراغ من إيمان ، فضلاً عن الفراغ الأيديولوجي الذي يعانيه اليوم ، وبخاصة بعد أن سقطت الماركسية كرابط أممي ، والشيوعية كنظام اقتصادي واجتماعي وسياسي . ولا ريب أن الإسلام من بين كافة الأديان السماوية هو وحده القادر على حل الأزمة الروحية التي يقاسي منها عالمنا ، وذلك لأن الإسلام وحده هو القادر على ملء الفراغ الديني وتقديم الأيديولوجيا المتكاملة اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً ، وذلك بسبب كون الإسلام ديناً ونظاماً ، ديناً ودنيا .

ب ـ الباطنية والشعوبية :

وقد شعر أعداء الإسلام والعروبة بالصحوة الإسلامية وبزخمها الهائل ، فاحتشدوا تحت لواء ما يسمونه بالحداثة ، وانطلقوا يرشقون الإسلام والعروبة بسهامهم المسمومة ، ولا ريب أن الصدام بين العروبة وبين الشعوبية ، ومن ثم الصدام بين الإسلام وبين الباطنية ليس بالجديد على تاريخنا . فلقد عرفناه خلال حقبتين من حقب الحضارة الإسلامية .

كانت الحقبة الأولى هي حقبة لقائنا الحضاري بالفرس ، ومن ثم بالتراث اليوناني . أما الحقبة الثانية فكانت حقبة لقائنا بالحضارة الغربية من خلال الاستعمار والهيمنة والتبعية . وقد أصابت هذه الحقبة التاريخية الحداثيين بخاصة بالانبهار ، إن لم أقل بالانسحار ، ووفرت لأصحاب النوايا السيئة كافة الظروف والأسباب لضرب العروبة والإسلام . فكان ما

نراه اليوم من حداثة وحداثيين ، ومن محاكاة عمياء وشكلية كاذبة PSEUDOMORPHISM ، وعسر هضم ثقافي ، وتقيؤ على المجتمع الثقافي .

وإنني لا أتجنى ولا أبالغ إذ أقول إن الحداثة لا تزيد عن كونها تركيباً من الشعوبية والباطنية بكل ما لهاتين الحركتين من شرور ومفاسد . وقد أورد العلّامة هاملتون جب Gibb في الصفحة ٩٨ من كتابه « دراسات في حضارة الإسلام » قوله التالي :

« كانت أخطار الحركة الشعوبية لا تكمن في دعواها الوقحة ضد العرب (برغم أنها كانت تغذي العداء الدائم للعرب بين الطبقات الدنيا في العراق وفارس) بقدر ما كانت تكمن في التشكيك الذي ولدته في نفوس الطبقة المتعلمة » .

ويستطرد جب قائلاً :

« إن عنف الدعوة الشعوبية كلما اشتد أصبح يعني أن المشاعر العدائية نحو العرب موجهة ضد الإسلام نفسه » .

ولا خلاف أن الشعوبية والباطنية أو الزندقة ، مفهومان مترادفان ترادف مفهومي العروبة والإسلام ، وليست الشعوبية حركة عنصرية فقط ، بل إنها أيضاً حركة فكرية اجتماعية ، قامت بها عناصر غير عربية واستهدفت ضرب الكيان العربي بضرب ثقافته وتراثه الحضاري ، متوسلة في ذلك التقليل من شأن اللغة العربية ، ومهاجمة التراث العربي الإسلامي والتشكيك بدور العرب التاريخي والاستهزاء بالقيم والمثل الإسلامية ، وذلك مقابل الاعتزاز بالإرث الحضاري الأعجمي ، وتمجيد القيم والسجايا غير العربية وإحياء الثقافات الأعجمية .

جـ ـ الإلحـــاد :

لا جدال أن أدونيس هو الكـاهن الأكـبر للحداثيين العرب في كافة أقطارهـم . فهو الأستاذ والمنظّر للحداثة . فكتابه المعروف باسم « الثابت والمتحول » يكاد يكون الدستور المتكامل فلسفة وأيديولوجية وأدباً للحداثة والحداثيين . ولذلك فإنني سأكتفي في هذه المقدمة بالعرض النقدي لأفكار أدونيس الحداثية ومفاهيمه الفلسفية في الدين والتراث .

يقول أدونيس في الصفحة ٨٩ و ٩٠ من كتابه « الثابت والمتحول » ما يلي : « إن منطق الإلحاد هنا يعني العودة إلى الإنسان في طبيعته الأصلية ، وإلى الإيمان به من حيث هو إنسان . . . فما دام الإنسان تابعاً للغيب لا يمكنه بحسب هذا المنطق أن يكون إنساناً . فتجاوز الوحي هو إذن تجاوز لإنسان الوحي ، أي تجاوز اللا إنسان إلى الإنسان الحقيقي ، إنسان العقل » .

ويستطرد أدونيس فيقول في الصفحة ذاتها :

« ولهـذا كان الإلحاد توكيداً على إرادة الإنسان الخاصة بحيث يكون عقله شريعته وقوته ، والله المقدس بالنسبة إلى الإلحاد هو الإنسان نفسه ، إنسـان العقـل ، ولا شيء أعظم من هذا الإنسان . إنه يحل العقل محل الوحي ، والإنسان محل الله » .

ويسترسل أدونيس في إلحاده ، فيقول :

« ومن هنا يقدم الإلحاد نفسه كنواة لحياة المستقبل وفكر المستقبل مقابل التدين الذي يرد الحاضر كله فكراً وعملاً ، والمستقبل كله إلى الماضي ، إنه (أي الإلحاد) بتعبير آخر أول شكل للحداثة » .

ومن ثم يقول أدونيس في الصفحة ٩٠ من كتابه المذكور ما يلي :

« ولـذلك لكي يتحرر الإنسان في الدولة الدينية ، لا بد أن تتحرر الدولة ذاتها من الدين . . . لا بد إذن من إزالة الدين من المجتمع وإقامة العقل . . . » .

ولا جدال أن المتأمل فيما أورده أدونيس آنفاً سرعان ما يدرك أن عقلانيته الإلحادية تكاد تكون تكراراً حرفياً لما نادت به الثورة الفرنسية . تلك الحركة الغوغائية التي دعت إلى تأليه العقل وعبادته . ولا عجب في ذلك فالثورة الفـرنسية كانت المـولـود الشرعي لعقـلانية عصر التنـوير الحسي . هذه العقلانية التي رفضتها الرومانتيكية الأوروبية شكلاً وموضعاً .

ومن المفـارقـات الساخرة ، لا بل المفجعة أن العقلانية الحسية التي سيطرت على الفكر والثقافة الأوروبيين منذ حركة الإصلاح الديني وبخاصة اللوثرية (نسبة إلى مارتن لوثر) . وذلك في القرن السادس عشر الميلادي حتى الثـورة العلمية الحديثة في أواخر القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين ، أقول : إن هذه العقلانية الحسية لا تسير بالإنسان من الشك إلى اليقـين ، بل تنـطلق به من اليقـين إلى الشك . فالإلحاد وفي أفضل الأحوال إلى اللا أدرية . وقد برهن عميد فلاسفة أوروبا عمانوئيل كانت ، على أن العقل لا يستطيع أن يحيط بأكثر من الظواهر ، وأنه أعجز من أن ينفذ إلى ما وراءها إلى اللاظواهر (الشيء في ذاته) NOUMENON التي تدرك فقط بالحدس العقلي لا بالتجربة ، ولا بالإدراك الحسي . ومن المؤسف أن الحـداثيين وعـلى رأسهم أدونيس لم يطلعـوا بعد ، كما يبدو لي على الثورة العلمية الجـديدة التي انتقلت بالعقلانية من كونها عقلانية حسية تتشكل بواسطة الحواس إلى صيرورتها عقلانية حدسية ، تقوم على الحدس الذي يعتبره ديكارت الاطلاع العقلي المباشر على الحقائق البدهية . وهو كما يقول

ديكارت التصور الذهني الذي يصدر عن نور العقل وحده . وهو عند بيرغسون التعاطف العقلي الذي ينقلنا إلى باطن الشيء . وهو بخلاف المعرفة الاستدلالية أو التحليلية التي لا تطلعنا إلا على ظاهر الشيء .

ولذلك نرى أن كافة الفلاسفة والعلماء الذين أرسوا القواعد الأساسية للعلومية الحدسية كماكس بلانك ، وهيسنبرغ وأينشتاين وسواهم ، كانوا من أقوى الناس إيماناً بالله عز وجل ، ولنستمع إلى ما يقوله بعض العلماء من أساطين العلومية الحدسية .

يقول ماكس بلانك صاحب نظرية الكم (الكوانتوم) : « إن الدين والعلوم الطبيعية يقاتلان اليوم جنباً إلى جنب ضد الإلحاد والخرافة . . . لقد كانت وما زالت وستبقى الصيحة الجامعة في هذه الحرب . . . إلى الله » (ص ١٦٨) من كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » .

ويقول البروفسور جون كليفلاند كوسترين في الصفحة ٣١ من الكتاب المذكور آنفاً ما يلي :

« إننا نلمس قدرة الله في النظام الذي أبدعه وفي القوانين التي أخضع لها الظواهر والأشياء » .

وورد في الصفحة ٩٤ من كتاب عقائد المفكرين لمحمود عباس العقاد ما يلي :

« يقول روبرت بروم Broom ، عضو اللجنة الملكية البريطانية منذ مطلع الخمسينيات ما يلي : « منذ نحو عشرين سنة اهتم بعض العلماء بأن يبحثوا عن الآراء المادية التي شاعت في الدوائر العلمية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، وهل لا تزال على شيوعها أم أن العلومية الجديدة

قد عدلت صورة فلسفة رجال العلم في القرن الحديث ، فتبين أن الأكثرية من أعضاء الجمعية البريطانية الملكية قد قرروا بأسلوب واضح أنهم يؤمنون بعالم روحيّ ، وبعناية إلهية مهيمنة ومدبرة ، وببقاء الروح بعد موت الجسد » .

د ـ التراث :

لقد أدرك الخبثاء من الحداثيين أن إسقاط العروبة والإسلام يستوجب إسقاط مالهما من تراث . فعندما تصبح الأمة دون تراث ، أو بالأحرى دون ماضٍ ، فعنئذ تسهل السيطرة على حاضرها ويسهل توجيه مستقبلها الوجهة التي يريدها أولئك الخبثاء .

وقد كان أدونيس أوضح الحداثيين (إن لم أقل أوقح الحداثيين) في مطالبته بإسقاط تراثنا من إسلامي وعربي . مستجيباً في ذلك لنصيحة أستاذه الكاهن اليسوعي بولس نويا الذي يخاطب أدونيس في الصفحة ١٦ من كتاب أدونيس « الثابت والمتحول » ويقول : « لقد ذكرت في الأطروحة أن التراث هو بمثابة الأب ونحن نعلم أن الإبن لا يستطيع أن يكتسب حريته ويحقق شخصيته إلا إذا قتل الأب . فعلى العربي أن يميت تراث الماضي في صورة الأب ليستعيده في صورة الإبن . . . » .

وقد عمل أدونيس بنصيحة ذلك الكاهن اليسوعي . وهكذا نسمعه يقول في الصفحة ١٠٤ من الجزء الأول من كتابه « الثابت والمتحول » ما يلي :

« فالتراث حين يقال عنه إنه بمثابة الأب ، فإنه لا يكون ملزماً للابن . . . وذلك لأن العلاقة بين التراث والإبداع ليست علاقة سبب بنتيجة » ومن ثم يقول في الصفحة ١٣٥ من الجزء الأول من كتابه المذكور :

« إن العربي رجلاً أو امرأة لا يستطيع أن يكون فعّالاً ، مادام خاضعاً لثقافة الماضي ، وما دام خاضعاً لتراث لم يعد يجيب على أية مشكلة من المشكلات التي يواجهها » .

وهذه دعوة صريحة تطالب العربي بقطع ما له من صلة بالماضي الثقافي والتراثي . ويبدو أن أدونيس وأستاذه بولس نويا لا يفرقان بين التراث وبين الإرث . ففي التراث يحيا الأب في الإبن ، بينما في الإرث يموت الوالد بولده . . . والحق أن أدونيس في فلسفته الحداثية يتجاوز الإنكارية لكل قيمة إلى الثورة على كل قيمة . ويعتبر الخروج على كل قيمة هو قيمة القيم . ففي كتابه « الثابت والمتحول » يساند كل المساندة إلحاد الراوندي وزندقة الرازي والمادية التاريخية والفوضوية والقرمطية وفرويدية الجنس . ويعتبر كل خروج عن وعلى الإسلام والتقاليد والفضيلة والأخلاق إبداعاً . فأبونواس مبدع والراوندي مبدع والحركة القرمطية مبدعة ، وكذلك ثورة الزنج . . . وهكذا نسمعه يقول في الصفحتين ٩١ و٩٢ من الجزء الأول من كتابه ما يلي :

« وهكذا يقدم الرازي وابن الراوندي أساساً عقلياً جديداً للحركات الثورية التحررية ، ولكل حركة تحررية على صعيدي النظر والعمل . . . لقد كان فكرهما تأسيساً نظرياً للحرية ، ولهذا كان تمهيداً التأسيس تأسيساً عملياً في الثورة » .

ويستطرد أدونيس فيقول في الصفحة ٩٢ :

« ومن هنا يذكر موقف الرازي بما يقوله برودين من أن الإنسان وجد ليحيا بلا دين ، أي بلا فكرة جاهزة مسبقة مطلقة أو غير مطلقة »

أما عن الحركة القرمطية فيقول في الصفحة ٨٤ ما يلي :

« اتخذت الثورة شكلها التنظيمي الأكمل في الحركة القرمطية » .

ولا ريب أن جميعنا يذكر تاريخ القرمطية الأسود . وما جرته على العروبة والإسلام من بلاء . ومن ثم يقدم لنا أدونيس أسوأ النماذج الأخلاقية في تاريخ أدبنا ويعتبرهم المبدعين . فالحطيئة مبدع ، وبهذا يقول أدونيس في الصفحة ٢٠٩ و ٢١٠ ما يلي :

« كان الحطيئة يوصف بأنه رقيق الإسلام لئيم الطبع ، وأنه كان شريراً فاسد الدين . وهذا يعني أن شعره كان كاملاً على الرغم من نقص دينه وفساده » .

ومن ثم يقدم لنا أدونيس لائحة من المبدعين تحتوي على الأسماء التالية :

« أبو الطحان القيني ويوصف بأنه كان فاسقاً ، ومن الخلعاء وخبيث الدين في الجاهلية والإسلام . ومنهم أيضاً ضابىء بن الحارث البرجمي . . ولعله أول شاعر عربي أشار إلى العلاقة الجنسية بين المرأة والكلب ومنهم النجاشي الحارثي الذي كان يوصف بأنه كان فاسقاً رقيق الإسلام » .

ومن ثم يأتي أدونيس في الصفحة ٢١٥ من كتابه على ذكر امرىء القيس وعمر بن أبي ربيعة ، فيعتبرهما من الشعراء المبدعين ، حين يقول :

« إن شعرهما يستمد أهمية خاصة من حيث كونه يؤسس الرغبة أو الشهوة على المحرم دينياً واجتماعياً . وفي هذا تكمن الثورة على التقاليد الاجتماعية . فشعرهما محاولة للخروج على المجتمع . وإن كل خروج على تقاليد المجتمع يحمل بذاته قيمة اللاخطيئة ، فاللذة هي وحدها القيمة . . . . » .

ويستطرد أدونيس فيقول :

« إن الانتهاك أي تدنيس المقدسات هو ما يجذبنا في شعرهما . . . وإن العلة في هذا الجذب أننا شعورياً نحارب كل ما يحول دون تفتح الإنسان » .

وهكـذا يتبـين لنـا أن المبدع في نظر أدونيس ينبغي أن يكون النشاز الأخلاقي والرافض الديني في تراثنا . فأدونيس يشترط في المبدع أن يكون متمرداً ثائراً فاسقاً سفيهاً رقيق الدين منتهكاً للحرمات مدنساً للمقدسات ، متجـرداً من كل فضيلة ، مجبولاً بكل رذيلة ، ضارباً عرض الحائط بكل عرف وقانون .

لقد أراد الفيلسوف الألماني نيتشه لإنسانه الأعلى أن يكون ما وراء الخير والشر ، ولكن أدونيس يريد للمبـدع أن يكون غارقاً في مستنقعات الشر يعب من وحله ويتمـرغ في طينه . وإنني أرى أنه ليس ثمة حل لمشكلة الحـداثـة والحـداثيين إلا بانتقـالهم من القـرن التـاسـع عشر إلى القرن العشرين ، فعدم توافق الحداثيين وتاريخ أمتهم وتراثها يعود إلى ذلك المناخ من النـزعة التجريبية المتزمتة SCIENTISM التي سيطرت على القرن التاسع عشر والتي لايزال يعيش في أجوائها من نعرفهم باسم الحداثيين . وإن ما يجعلنا واثقين من اندحار هذا التيار الهدام المعروف باسم الحداثة هو كون الحضارة التي انبثق منها واستند إليها هي في مرحلة التدهور والانهيار وكون تراثنا سيحافظ على حاضرنا ومستقبلنا بماضينا ، فالتراث كما يقول هايديغر يوجد وجوداً تاريخياً وهو ليس محفوظاً بين دفات الكتب . إنه موشوم على جسم الأمـــة ، عالق بآذانها ، منقـوش على جدرانها ، حالٌ في لغتهـا ، مكتوب في لاوعيها . إنه يتعلق بثوابتنا الفلسفية ، بمفهومنا عن اللغة وعن التاريخ وعن الهوية وعن الكائن ذاته . . .

أحمد الشيباني

غرة رمضان المبارك عام ١٤١٢ هـ